ان التي تهزّ السرير بيسارها تهزّ الارض بيمينها[1]

لحناب الفاضل عرنلوس سليم افندي البستاني

من التوفيق ان افوز على غير اهلية بالوقوف خاطبًا في هذا الموقف. ولولا دواعٍ لا اقدر على مخالفتها لاعتذرت بما يوجب العذر فاطعت واخترت موضوعًا للكلام الفقرة التي جعلتها استهلالاً للمقال منقولة عن الخطاب الاول الذي كُتِب في الشرق في تعليم النساء . ولمّا كان المقصود البحث عن منافع النساء ومضارهنّ كان لا بدّ من حصر الخطاب في الجنس الكيّس اللبق وصرف النظر عن جنس دونه ظرفًا ورقّة . والمامول ان يتقدّم من الامة الجميلة الشرقية من يكتب في الرجال كما كتبوا في الجنس اللطيف . فاقول

لا نعجب لتحجُّب الذين لا تزال النساء في حيّزهم الاجتماعية في درجة محطة من القول ان التي تهزّ السرير بيسارها تهزّ الارض بيمينها ولا من حكمهم بانهُ مبالغة ربما كانت لتمليق الجنس الظريف . ولا بُعدَ الانسان ذكرًا كان او انثى من اهل المدارك الذين انتظموا في سلك البالغين الدرجة المعدّة للانسانية منذ بداءة الخلق . او الذين اقتربوا منها . ولو بلغ الدرجة القصوى من اتقانها الخارجي . فان الاساس انما هو العقل بنوع التصرفات والاعمال . والعقل واحدٌ في الذكور والاناث ولا اهمية لثبوت التفاوت الجنسي في قوته او نفيه في النسبة العقلية بين الجنسين كما انهُ لا اهمية لتفاوت القوة العقلية في جنس واحد لان الكليّات تعتبر الكل وتصرف النظر عن البعض فعقل اعقل النساء ليس كعقل اقل الرجال عقلاً ولا قوة اضعف الرجال كقوة اقوى النساء وافراد الجنسين قد تتساوى . وقد يفوق بعض الاناث بعض الذكور عقلاً وقوةً . والنساء كالرجال في الدنيا امة ذات قوة عقلية مدبرة مدركة مميّزة وقوة مادية منفذة لاوامر العقل خادمة لاحتياجات الجسم . فكأن الدنيا ميزان منصوب ذو كفتين في كلٍّ منهما ثقل . فالرجال في كفة والنساء في كفة . ولا نبحث عن اي الثقلين ارجح ولكن عن التاثيرات التي يقدر الثقل النسائي ان يؤثرها في ذلك الميزان تيّا او بالواسطة حسنة كانت او غير حسنة . ولم تُوفَّق امة النساء مطلقًا الى بلوغ الدرجة التي بلغتها الرجال من المعارف العامة التي تثقف العقل بل تروّض الذهن وترقي المدارك وتقوّي التمييز وتكشف القناع عن وجه غادة الحقائق وتبلغ الانسانية غايتها . ولا ريب ان بلوغ

(١) وهي خطبة خطبها في مدرسة البنات السورية الانجيلية ليلة اعطائها الشهادة لتلميذاتها المتخرجات . انظر الاخبار في هذا الجزء

بعض الجنس درجة ذات شان بالوسائط المناسبة دليل على اقتدار ذلك الجنس ان يتقدم بالحصول على اسباب الترقي والنجاح . وتكون المعارف العامة الصحيحة ضابطاً للتصرف والاعمال حتى يكون اهلها اذا اتفقت صوالحهم واغراضهم على اتفاق في المشرب والذوق والمعيشة بل قد تقرّر في التجارب ان المتحدين فيها يكونون وان اختلفت جنسياتهم وتباينت اغراضهم كاعضاء جسم واحد يأسفون من الحروب التي تكدر الالفة وتبعد الناس عن روضة الانسانية الفيحاء . ويصعب على من جمع المعارف التي تؤثر في التصرفات والاخلاق ذلك التاثير الحسن ان يكون عثيراً لجاهل كما يصعب على صحيح الجسم ان يساكن المجذوم . لان الجهل يجعل صاحبه غالباً منقاداً الى هوى النفس شرس الاخلاق منقلب الآراء صعب المراس قليل الصبر . فما اصعب اتفاق الزوج والزوجة اذا كان التفاوت بينهما في المعارف عظيماً . فالجامعة العلمية هي ينبوع سعادة العائلة وترفيق اعمالها . واتقان تربية الصغار . والحصول على راحة لا يفوز بها الذين قد اعمى الجهل بصيرتهم وارخت الغباوة حجابها على اعينهم

على ان التلميذات اللواتي اصبحن لحسن الحظ في مدرسة كهذه تشهد بالاختبار بانقانها يطلبن المعارف بعناية حضرة الخواتين رئيساتهن البارعة ومعلماتهن المجتهدات سالكات السبل المؤدية الى الجامعة العلمية ينبوع الراحة والسعادة والى افادة الناس بالقدوة والاجتهاد لا يستعظمن ما نسب الى جنسهن من الاقتدار على هز الارض . ولا يفتخرن بالحصول على الوسائل العلمية التي تجعل لهن الحمل الاول . والافتخار ابن الجهل والدعوة سليلة الغباوة . والمعرفة ينبوع اللطف واللين والرقة والدعة . ومن اتسع نطاق معارفه عظم انتفاعه فيرى ان ما يعرفه قطرة بالنسبة الى بحار يجهلها . ولهذه المدرسة فضل التقدم فانها الاولى الثابتة للبنات . أسّست تحت رياسة المرحوم دي فوربست الاميركاني بعد اعتناء عدة من حضرة المرسلين الاميركان بتربية البنات في عيالهم تربية توّهلهن لان يكنّ زوجات رجال عارفين لا يرتضون بان يكون اولادهم وبيوتهم في يد نساء لا يحق الركون الى صلاحيتهن بوجوب الحقوق المشروعة لهن او عليهن . وقد جاءت هذه المدرسة مع اختلاف ادوارها بثمرات يانعة تشهد بفضل الذين اداروها واعتنوا بها وعادت بالنفع العميم علينا لانها مع المدارس التي تبعتها ونهجت منهجها اعدّت لشبان الوطن المتقدمين في درجات المدنية الحقيقية والانسانية شريكات مناسبات تجعل التي تحرّك السرير يسارها صالحة لان تهزّ الارض بيمينها هزّاً مفيداً نافعاً منزّهاً عما طالما اتهمت به جماعة النساء خطاء او صواباً من حب المجد الباطل والافتخار بالعَرَض والاشتغال بما هو خارج فروضها عن الواجب عليها . فيكون حصن العائلة مدرسة الادب وينبوع التقوى وروضة الالفة والاتفاق وجنة الراحة والرفاهية والسعادة

والمرأة الاولى المذكورة في اقدم التواريخ المقدسة هي امنا حواء التي اضاعت نعيم الفردوس باكل الثمرة واطعام ابينا آدم منها . واكثر الرجال ينقادون انقياد ابيهم الاول . فتزلزلت اسس الراحة في الارض وضاعت طهارة الجنس . وهبط البشر من ذروة العز والمجد الى حضيض الذل والاتعاب والمطامع والاوجاع والمكاره . وقد ذكرت في التواريخ عدة نساء حصلن على شهرة باعمال خطيرة كسيورة واستير وزنوبيا او زينب وجنة دارك الفرنسوية والبصابات ملكة الانكليز وغيرهنّ من اللواتي قلما قام الرجال بافعال اعظم من افعالهنّ . وبضيق المقام دون ذكر افراد النساء الشاريخيات اللواتي هززن الارض بيمناهنّ . فصرفنا النظر عنهنّ وعوّلنا على ذكر الامور العامّة الاولية توضيحًا لقول من قال "ان التي تهز السرير يسارها تهز الارض بيمينها" . واين فتاة حسنة الاخلاق من فتاة تصرف قصارى عنايتها بالملابس وراحتها والاشتغال عن فروضها في المرقيات الادبية بنفسها وبالامور العرضية . فان الاولى شانها القيام بالواجب عليها واسترضاء ابويها والاجتهاد وحسن السلوك ومراعاة احوالها بنفقاتها ونفع اخوتها بان تكون قدوة لهم بالرصانة وسعة الصدر واللطف واللين واعانة امها على اعمال البيت وبالجملة اما ان تكون بركة لوالديها وعائلتها او نعبًا لهم . واعظم المضرات تلحق بها واعظم المنافع تعود عليها لان عيون الناس تتخصص اليها فتكتسب الصيت الحسن الذي يمهّد السبل لنوال السعادة . او تشتهر بما يلقي الموانع دون راحتها الاستقبالية

واهمّ عرش تستوي عليه المرأة في ملكها الصغيرة عرش الزواج فان اعتدلت وعدلت وجدّت وتمسكت بعرى التقوى وتحلّت بحلى الرصانة والدعة وتمنطقت بنطاق الصواب واعتصمت بالصبر الجميل وتزيّنت بالتاني والاستقامة والطاعة والانقياد وابتعدت عن القصف والزيف والحدّة والذم وعكفت على اتقان التربية وترتيب البيت وجعلت نفسها روضة تزداد بها السعادة والانشراح في السرّاء وتخفّف اثقال الهموم في الضرّاء . تصبح ملكتها دار نعيم وهناء ترتع فيها هي وزوجها واولادها . وهي ذات اقتدار على معاونة زوجها ومساعدته في اشغاله واعماله وان لم يكن لها بد فيها او معرفة بها . أما هي التي ينوى بها عزمة وتعلو همة وترتاح افكارهُ اذا لم يلاقِ في البيت ساعة راحته وابتعاده عن الهموم والاشغال ومعاملة الخلق الاّ ما يريح باله وجسمهُ من جهة انتظامهِ ونفقاتهِ وتربية اولادهِ . أوَ ما هي التي تقدر على صون صحتهِ وتجديد قوى عقلهِ بالبشاشة والقناعة فيجلس طيّب النفس قرير العين وينام مرتاحًا يتناول طعامًا يهنأهُ ويراهُ بعدم استماعهِ تذمرًا ولا شكوى . ويعود الى اشغالهِ ساكن الخاطر مرتاح البال قوي العزم لا يشغله عن اعمالهِ هم ادارة البيت وارضاء زوجتهِ ولا تربية الاولاد ولا الاعتناء باجسادهم وآدابهم ومعارفهم . ويسرُّ بانقضاء نهار الاتعاب والمشقات ليعود الى

حضن عائلة ذات نظام فرحة راضية بما تمّ لها لتسمع اخبارًا عائلية سارة وحديثًا مفرحًا يسهل على المرأة المتعلمة ان تحدث جليسها به لاتساع خزانة معارفها واتساع نطاق اطلاعها في اوقات الفراغ الطويلة عند التي تتقن ادارة بيتها . فشتان بين زوجة يضيق المقام دون تعداد مناقبها . وزوجة تخزن همومها الحقيقية والموهومة في صدر ضيق لا قلب فيه ولا فؤاد لتلقيها في اذن رجلها المنكود الحظ متى عاد الى منزل جد وكد وسهر الليالي وحمل الهموم والمتاعب ليجعله ملجأ من مشقات الاشغال ونبال الحياة ومتاعب معاملة الخلق وليتناسى به همومًا لولا الفترات لانحلت جسمه وبرت عظامه واسكتته رمسه . وكلما وضع رجلاً انهكها التعب على اسكفة البيت يقول لعلّ الله هدى مديرته الى الصواب وغيّر احوالها . على انه يجيب املاً فيسمع ضوضاء ويرى اختلالاً ويصاب بسهام لوم تجد الزوجة اسبابًا لترشقه بها متى ساء خلقها وضاق صدرها وضعف حبها ونفدت الحكمة من اعمالها وتصرفاتها . وقبل ان يستريح من الصدمة الاولى تبادره ثانية . وهي شكوى التعب ومشقات التربية وادارة الخدم . ثم ثالثة وهي طلب اشياء واللوم على تقصير او نسيان . فيفص بطعامه وتسلب راحته في جلوسه ونومه . وهذه حالة تبلي الجسم بالمرض والعقل بالضعف والعزم بالخور . وتجعل الرجل ينفر عن البيت تجنبًا لمعاشرة زوجته طالبًا السلوى بامور اضاعت كثيرين من افضل الرجال . ومن يطلب معينة له يطلبها للراحة . واذا صبر على مقضيه وكتم همه وتحمل مصابه يضيق صدره ويخل جسمه ويضعف عزمه وعقله ونسوء احواله وعتباه . والمتأمل في هذه الامور يقول حقًا ان "التي تهز السرير بيسارها تهز الارض بيمينها" . وتطاول الزوجة من اسباب خراب البيوت وانحطاط العيال وكم من عائلة وقعت في عسر لعدم مراعاة المرأة اقتدار بعلها واقتدائها بالنواتي من الخفر ان تتعدى جهتّ وسد اذنيها دون منبهات الحكمة ودواعي الاحوال . وما اجهل التي ترضى بعيشة العسر الداخلية للظاهر بما توهم انه يعززها ويكرمها . وهذه البلوى يتبوع الخلاف وعلة النزاع وسلب راحة العيال وحرمان الاولاد منافع التعلم واسباب صون الصحة . فالمتعلمات يعرفن ما هي الراحة الحقيقية وانها ليست البذخ والترف والمجد الباطل . وان خلو الكيس من ثروة لا يُعد بلية ولا عارًا وعيبًا ولكنّ البلايا والعيوب في خلوّ الصدر من المعارف والتربية من الآداب والسجايا . فالمعارف التي تجعل ثمارها وتزهو ازهارها في مثل هذا المكان هي التي تجعل الانسان حريًا بالاعتبار والتكريم . والعاقلة تتوطد اركان بيتها وتقوي دعائمه بمراعاة احوال بعلها وجعل نفسها قيمًا تعمل به يدهُ اذا رأت اسرافًا وتبذيرًا . والتشبه بمن يقوقنا بالمال عيب كبخل متمول يبخل على نفسه وعائلته بلسباب الراحة وعلى ابناء وطنه بالاسعاف والاحسان . فالنساء كالزلازل تهدم اثبت البيوت او صخور تشاد عليها اكثرها متانة فتقوى على صدمات العواصف والسيول الجوارف

(يتلوه البقية)